جموح المادية

بقلم الدكتور منصور فهمى بك

مدير دار الكتب المصرية والعضو بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

تشيع عبارة المادية على ألسن الكثيرين دون أن يتصوروا معناها على نحو ما يتصوره العلماء والفلاسفة ، ففى حين يقصد هؤلاء بتلك العبارة مجموعة من النظريات ترمى الى رد حقائق الأشياء لجسم يحس ومادة ذات أبعاد ، فقد يفهم الكثيرون من عبارة المادية نزعة تتغلب بها الشهوات الجثمانية فى مسلك الإنسان وتصرفاته . وقد يقصد الناس كذلك من تلك العبارة نزعة التشريف لمركز المال فى نفوسهم فيعنون بتكديسه واستكثاره . وقد يتصورون من المادية أنها تلك الحياة الاجتماعية التى تتغلغل فيها سلسلة الآلات فى الإنتاج الاقتصادى والتواصل بين الناس وما الى ذلك مما تتشخص به الحضارات الصناعية . فإبهام معنى المادية اذن يصح استخدامه اجمالا على إطلاقة فى خضوع الإنسان لشهواته الوضيعة على حساب شهواته الرفيعة ولتغليب أنانيته وأثرته على حساب الإيثار والتراحم . وفى شدة حرصه على تلاد الدنيا على حساب زهادته فيها . وعلى اندفاعه فى النضال الحيوى واسرافه فى الكفاح على حساب الهوادة والقصد .

وليس من شك فى أن المادية نزعة من نزعات البشر وأصل من أصول هذا الوجود ، وأن مختلف مظاهرها يتصل بصور هذه الحياة الإجتماعية اتصالا وثيقا . فحواس الإنسان لها حاجات واقعية ملحة من هذا الكون المادى وأنانية المرء وتقديره لنفسه غريزة من الغرائز الثابتة . وحرص الإنسان على الأموال ومتع الحياة من الخصال التى اتصف بها البشر من غابر الزمان ودفع الناس بعضهم بعضا فى ميدان الكفاح من الأمور التى تزج بهم فى التراحم والقصد فى الأعمال .

كل أولئك من المسلمات التى يؤيدها الواقع وما كان لأحد من المفكرين والفلاسفة أن يحاول نكران المادية أو يطمع فى إزالتها من طبائع الوجود . بل قد أدرك المصلحون أن للحياة المادية قيمها وأقدارها وقدرت الديانات لها شأنها . فكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول (نعم المال الصالح للرجل الصالح ، ونعم العون على تقوى الله المال) وجاء فى القرآن يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق وفى كتب الأخلاقيين من علماء المسلمين أنه قيل لبعض الحكماء : ما النعيم ؟ فقال : الغنى فإنى رأيت الفقير لا عيش له فقيل لهذا

الحكيم زدنا . فقال : الأمن . فانى رأيت الخائف لا عيش له . فقيل زدنا . فقال : الشباب . فانى رأيت الهرم لا عيش له .

وقد اعترف الإسلام وأئمته بقيمة الجمال المادى فقال صلى الله عليه وسلم : (اطلبوا الخير عند صباح الوجوه). وروى عن عمر أنه قال : (اذا بعثتم رسولا فابعثوا حسن الوجه حسن الاسم) وذهب الفقهاء إلى أنه اذا تساوت درجة المسلمين فأحسنهم وجها أولاهم بالإمامة ، وفى هذه الشواهد دليل على أن نعم المال والعافية والشباب والجمال من النعم المشروعة التى اعتبرها الدين وأقرها العقل والتفكير . وليست هذه النعم وحدها هى التى تتشخص بها الحياة المادية فهناك نعم أخرى كنعم الجاه والاعتزاز بالحسب والعصبات والأعوان والطموح الى التزعم والتسلط ونعمة طول العمر والسلامة وبعض ضروب الأنانية .

وقد روج الكثيرون من أئمة الفكر عند الشرقيين وعند الغربيين لقيمة هذه النعم ، وفى الآثار الإسلامية ما يؤيد الحرص على الذرية والتكاثر فيها . قال صلى الله عليه وسلم : (النكاح سنتى فمن أحب فطرتى فليستن بسنتى). وقال عليه الصلاة والسلام : (من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا). وقال صلى الله عليه وسلم ، (اذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) .

وفى السنة حث على تجويد النسل والاعتزاز بالعصبات . قال عليه الصلاة والسلام : (استجيدوا الخال فان العرق دساس) . وقال صلى الله عليه وسلم : (تخيروا لنطفكم فانكحوا الاكفاء وانكحوا إليهم) .

بل ان أمثال هذه النعم المادية قد لا يحتاج الى التدليل على قيمته بما أثر عن المصلحين والأنبياء . ففى ذوق الناس وسلامة فطرهم وتجارب حياتهم الاجتماعية ما يؤكد لهم قيمتها . وحسب المرء أن يتأمل قليلا ليجد فى الحياة المادية على اختلاف صورها سحرا جاذبا قد لا يقاوم . وقيما خلابة مغرية لا يستهان بسلطانها على النفوس .

على أن فى بعض الدواء سما وفى بعض السم دواء ورب ضارة نافعة ورب نافعة من وجه ضارة من وجه آخر . فكما تدفع شهوة الطعام الى صحة الأعضاء فقد تدفع الى ما فيه هلاكها . كما تدفع الرغبة فى جمع المال الى بلوغ الحاجات ، فقد يدفع الحرص عليه الى الحرمان من هذه الحاجات ، وكما يكون السعى فى سبيل المال بالغا بصاحبه الى الخير ، كذلك قد ينتهى به الى الشر والعدوان .

وليس من شك فى أن المدنية الحاضرة تقوم قواعدها على أمس من المظاهر المادية . ولهذا تتجه فيها الأفئدة الى لذات المال والجاه وسائر الشهوات البدنية من متع المآكل والملبس والمنظر وما الى ذلك مما يدخل فى حظيرة العيش المادى . وليس من شك كذلك

فى أن المثل العليا فى هـذا العصر تنشلب الى مطالب مادية بخلاف ما كانت عليه فى بعض العصور الغابرة . فان أكثرها كان أدنى الى المعنويات من الماديات وبخاصـة فى أعصر الأنبياء والقديسين .

إن النعم التى تجود بها الحضارة الراهنـة كثيرة ومتنوعة فمنها ما تهيأ عن الاكتشافات العلمية ومنها ما استقر من تطور لشرائع والعادات ومنها ما تخلف عن التطورات الكونيـة الطبيعية . على أن هذه النعم التى تجل عن أن تحصى يستخدمها الانسان استخداما باطلا ، ومن ثم تجمح بجموحا ينأى به عن مقاصد الصواب والخير ، فمثلها كمثل الفرس التى لا يحسن فارسها ركوبها ورياضتها فيضطرها سوء القيادة للتخبط والزلل .

فقد يؤدى حب المـال للرجل الى تورطه فى الحرمان من متع خلقت للإنسان والمـال سبيله اليها ، فكم من شحيح لم ينله من ماله إلا هم الجمع ومشقة الاكتناز . وكم من شخص أهدر الكرامة فى سبيل الاستكثار من متاع الدنيا حين اشتراه بذلة النفس وهوان القدر .

وكم من شخص هوى الى ارتكاب الجرائم وتردى فى ظلمة السجون بجشعه وطمعه . بل وكم من أمة وجماعة يذكرها التاريخ أهلكها طلب الثراء والاستغراق فى المتع . وكم من الناس والطوائف قد أساء إليهم سوء توزيع المـال بينهم ، وأطماع نفوسهم . وظلم بعضهم بعضا ففوت هذا التوزيع السيء والطمع المزرى والظلم المبين على العديدين منهم كثيرا من نعم الله المعدة لهم ومتع الحياة المهدة اليهم .

ولعل أكثر الحروب الحديثة قامت بسبب الاستزادة من الثراء والتوسع فى الاستعمار استزادة دفع اليها الإسراف فى الجشع أو الافتتان بالعزة والسلطان .

وكذلك قد يجر الإغراق فى الشهوات وأمور أخرى الى أسوأ العواقب ، فالذين أسرفوا فى شهوات بطونهم والذين بالغوا فى أناقتهم وشهوات لباسهم والذين تمادوا فى ترفهم ، كل أولئك قد أصابهم حرمان من الصحة والرجولة وفضيلة الاحتمال . وكذلك قد يسرف الناس فى أنانيتهم وتوفير أسباب اهناء لأنفسهم باتقاء ما تدعو اليه العناية بالبنين من قيود وتكاليف وتبعات ، فكم من أزواج قاوموا سنة الله فى بقاء النسل ولا دافع لهم الا إيثار الراحة والأنانية . لكن هؤلاء الأفراد قد عوقبوا بأقسى العقوبات فى أنفسهم وأوطانهم جزاء غلوهم فى الأنانية وإيثار الدعة . وكذلك قد يسرف الناس فى طلب الجاه والاعتزاز بالعصبات فيؤدى بهم ذلك الى التصلف ويورثهم كراهة الناس بل قد يسرف بعض الشعوب فى التزيد من أدوات الكفاح والقتال فينتهى بهم ذلك الى الاندفاع فى الحروب والانزلاق فى مهاوى الدمار والخراب بل قد تغرق الشعوب فى الاستزادة من آلات التعمير وأدوات الصناعة والفن والترفيه فينقلب

عمرانها الى خراب حين تشل الأيدى عن الأعمال ويطغى جيش المتعطلين فتتزعزع أسس الأوضاع العمرانية القائمة على طبيعة الفروق الفطرية العادلة بين الناس والمستندة على وجود الطبقات الاجتماعية والمستمدة من ترابطها وتقررها على اختلاف المراتب والأحوال .

وعلى الجملة فما قدمنا على سبيل الاستشهاد والمثال ترى أن المدنية الحاضرة مريضة بالإغراق فى المادية مصابة بجموح هذه الحياة المادية وما يترتب على هذا الجموح من الشر والفوضى والانحلال .

ويلوح لى أن المفكرين قد يتبينون مساوئ هذا الجموح المادى فى مدنية العالم فعلهم عاملون على درء أخطاره . ولعل خير علاج لذلك هو مبدأ الاعتدال الذى طالما نبه الى شرفه علماء الأخلاق فى الغابر والحاضر وأوصت باتباعه الديانات ، ففى القرآن حث على هذا الاعتدال حيث أمر الله عباده ألا يطغوا فى الميزان وأن يقيموا الوزن بالقسط ولا يخسروا الميزان ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط وأن يأكلوا ويشربوا ولا يسرفوا ، الى غير ذلك من الإرشادات الحكيمة التى ترمى الى وجوب مسلك الاعتدال فى الحياة . والمقصود بالاعتدال هو ألا تطغى الأنانية على الإنسان طغيانا ينسى معه حاجات غيره وواجبه حيالهم ومعاونتهم ليصيبهم قسط من الخيرات والحظوظ التى يصيب منها . فمع أن الناس لا بد أن تتفاوت حظوظهم إلا أن هناك ما يوجب الارتباط النسبى والتقارب والتناسق بين هذه الحظوظ لمصلحة الحياة الاجتماعية الصحيحة .

ولعله يكون من أقوى الأسباب التى تحصر مساوئ الحياة المادية التى تسن التشريعات المحلية والدولية التى تحد من الإسراف فى هذه الحياة أن تيسر الأسباب المتعددة المختلفة النواحى لجريان الحياة المعنوية فى الشعوب وتيسير سريانها بين الناس بشتى الوسائل التى تخدم بها الحياة المعنوية وتتشرب فيها الأنانية روح الغيرية وعلى هذا الأساس يجب أن يروج المروجون للأخلاق التى تحض على فضائل التراحم والتعاون والرجولة وكبح الشهوات الخسيسة وتدفع للسعى المنتج وتخصيص بعض الأوقات وتهيأتها للتوجهات الروحية ، كل أولئك جدير بالشرقيين أن ينهجوا سبله فإن نفوسهم بحكم طبائعهم وتاريخهم لم تزل مستعدة لمقاومة طغيان الحياة المادية وجموحها .

منصور فهمى